

دلائل الإعجاز

ومعلوم . ليهـ ء هو الذي ظمـ بالذ D ا و ك ل ا م ر آ ن ا ف كان نماـ إ حال ـ كل على هـ لأنـ D أن ليس النظم من مذاقة الحُرُوف وسلامتها مما يَثْقُلُ على اللسان في شيء . ثم إنه اتَّفَاقٌ من العقلاء أن الوصف الذي به تَدَاهَى القرآنُ إلى حدِّ عَجَزَ عنه المخلوقون هو الفصاحة والبلاغة . وما رأينا عاقلاً جعل القرآن فصيحاً أو بليغاً بأن لا يكون في حُرُوفه ما يثقلُ على اللسان لأنه لو كان يصحُّ ذلك لكان يجبُ أن يكون السُّوقِيُّ الساقطُ من الكلام والسُّفْسَافُ الرَّديءُ من الشعرِ فصيحاً إذا خَفَّتْ حروفه . وأعجبُ من هذا أنه يُلَازِمُ منه أنه لو عمَّدَ عامدٌ إلى حركاتِ الإعرابِ فجعلَ مكانَ كلِّ ضمَّةٍ وكسرةٍ فتحةً فقال : " الحمد " بفتح الدال واللام والهاء وجرى على هذا في القرآنِ كلِّه أن لا يسلبُ ذلك الوصفَ الذي هو مُعْجَزٌ به بل كان ينبغي أن يزيدَ فيه لأن الفتحة كما لا يخفى أخفُّ من كلِّ واحدةٍ من الضمة والكسرة . فإن قال : إن ذلك يحيلُ المعنى . قيلَ له : إذا كان المعنى والعلَّةُ في كونه معجزاً خفةَ اللفظ وسهولته فينبغي أن يكون مع إحالة المعنى معجزاً . لأنه إذا كان معجزَ الوصفِ يخصُّ لفظه دون معناه كان محالاً أن يخرج عن كونه معجزاً مع قيام ذلك الوصف فيه . ودَعُ هذا وهَبُ أنه لا يلزمُ شيءٌ منه . فإن يكفي في الدلالة على سقوطه وقلَّةُ تمييز القائل به أن يقتضي إسقاط الكناية والاستعارة والتمثيل والمجاز والإيجاز جملةً واطِّراحَ جميعها رأساً مع أنها الأقطابُ التي تَدورُ البلاغةُ عليها والأعضاءُ التي تستند الفصاحةُ إليها والطلُّوبيةُ التي يتنازعها المُحسِنون والرَّهَّان الذي تجرُّبُ فيه الجياد والنِّصال الذي تُعرفُ به الأيدي الشِّداد وهي التي نَوَّهَ بذكرها البُلغاءُ ورفعَ من أقدارها العُلَماءُ وصنِّفوا فيها الكتبَ ووَكَّلوا بها الهِمَمَ وصرَّفوا إليها الخَواطِرَ حتَّى صارَ الكلامُ فيها نوعاً من العلم مُفرداً وصناعةً على حِدَّةٍ ولم يتعاطَ أحدٌ من الناس القولَ في الإعجاز إلا ذكرها وجعلها العُمُدَ والأركانَ فيما يوجب الفضلَ والمزية وخصوصاً الاستعارة والإيجاز . فإنك تراهم يجعلونهما عنوانَ ما يذكرون وأولَ ما يُوردون وتراهم يذكرون من الاستعارة قوله عزَّ وجل : (واشتدَّ عِلَّ الرَّأسُ شيباً) وقوله : (وأشربوا في قلوبهم العِجلَ) وقوله D : (وآيةٌ لهم اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّجْمَ) وقوله D : (فاصدِّعْ بِمَا تُوَمِّرُ) وقوله : (فلما استتأسوا منه خَلَّصُوا نَجِيَّاً) وقوله تعالى : (حتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا) وقوله : (فَمَا رَبَّحَتْ

